يكتبون شعرا . وكان لقب « شاعر » طموحا قاسيا يعذب . وفي احسن الاحوال كان بعض المعلمين يقول : مبتدئون لهم مستقبل . حتى العدو نفسه لم يكن يكترث بنا بشكل جاد . وفي الامسيات الشعرية التي كنا نقيمها في انقرى كان الفضول والاعتبار السياسي وبنات المدرسة هي التي تشجعنا . فقد كان الشعر « المعتبر » .. الشعر المقبول ، آنئذ ، لدى الناس والصحف هو الشعر القادم من الخارج .. هو الشعر المصنوع خارج الارض المحتلة .

وكانت النجوم الشعرية انرائجة في العالم العربي هي ذاتها الرائجة لدى صحف العدو باستثناءات قليلة . ولم نسأل يومها : كيف يملك الشعر كل هذه القدرة على الاحتيال فيكون مطرب الاضداد ؟

وبقينا مجهولين ...

الى ان قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة : الاعلان عن وجود شعر في الارض المحتلة ، فانقلبت العلاقة داخل الارض المحتلة وخارجها . ومشى التطرف الى نقيضه المتطرف : لا شعر الا في الارض المحتلة !!.

الفضيحة معروفة . ولا اضيف هنا جديدا . وسأعترف بأن شهادتي لا تتمتع بأية قيمة عدا قيمة الاعتراف : نحن الذين كنا نكتب ما سماه غسان « شعر المقاومة » لم نكن نعرف اننا نكتب « شعر مقاومة » وقد دهشت ، قبل سواي ، بهذا الشغف السياسي بما نكتبه . كل شيء قابل للتفسير كأن نقول : مرحلة تاريخية معينة انفتحت فيها النفسية العربية الجريح على تقديس كل ما يرد من ارض فلسطين . ولكن ... ولكن بعضنا داخ من اللذة ، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين ، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق . وبعضنا ادرك انها موجة وتنكسر ولا يبقى من هذا الزبد غير الشعر الحقيقي . ويومها .. يومها كتبت : « انقذونا من هذا الحب » ..

ولكننا نعرف جيدا ان محاولات انغاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسية او بكائيات يكتبها شباب في الارض المحتلة ، قيمتهم الفنية الاساسية هي انهم يعيشون في الارض المحتلة ، ليست من صنع غسان كنفاني .

ان ما فعله غسان هو كسر الحصار المضروب حول اوضاع العرب في الارض المحتلة ، واضاءة كل موقع صمود يمارسه ابناء الشعب الفلسطيني هناك . وكان الشعر ، ولا يزال ، احد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود .

وكان اكتشاف العرب بأن العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية ويحبون بلادهم ويكرهون الظلم اكتشافا مذهلا .. مذهلا حتى الخزي . ومع ذلك ، اتاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الاحساس بالانتشار والتغلب على الاسوار . وكان وعي اصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع اليهم حافزا لنموه وتطويره لدى البعض ، وعقبة امام تطويره لدى البعض الآخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة .

لقد دل غسان كنفاني الراي العام العربي على ادب الارض المحتلة . واما المبالغات واختلال الموازين فتلك مسألة تخص الذين درسوا ما قدمه غسان . لم تكن لفظة « مقاومة » رائجة في الشعر هناك قبل ان يطلقها غسان عليه . وهكذا ايضا دل المسمى على اسمه ...